ديوان شعر كاتوللوس

بقلم
الدكتور احمد عبد الرحيم ابوزيد

كانت شهرة كاتوللوس الشاعر الرومانى عظيمة بين معاصريه فى القرن الأول قبل الميلاد واستمرت مع الأجيال اللاحقة . لقد كان شاعراً غنائيا يفوق أى كاتب قديم . وذلك لما امتازت به أشعاره من التعابير السلسة ذات اللغة الموسيقية ومن ابرازه لشعوره الشخصى ولا سيما تجاه سيدة ألهبت عواطفه ودفعت حبه إلى مرتبة تقرب من العبادة . ولم يعبر أى شاعر رومانى آخر تعبيراً مباشراً عن الطبيعة والحياة الإنسانية بصدق مثلما عبر كاتوللوس عن حبه الأول أو عن سعادته وآلامه . إنه قدم لنا تجاربه وعواطفه الخالية من الزخرف فى صورة صادقة وعبارات حية . وتحمل قصائده طابع السهولة والطرافة والوضوح والتدفق الطبيعى وهو يضاهى بهذه الصفات الشعراء الغنائيين العظام فى بلاد اليونان ويفوق فى الوقت نفسه جميع من سبقه ومن خلفه من الرومان .

وهناك من يشبهه بالشاعر الاسكتلندى « روبرت بيرنز » وذلك لاتفاقهما فى عواطفهما الجميلة الرقيقة وفى طبيعتهما المتحركة وفى قدرتهما العظيمة على الحب والهجاء وفى مسراتهما وآلامهما وفى اخلاصهما الصادق وثباتهما فى الحياة وملاحظتهما الدقيقة ونظرتهما إلى العالم المحيط بهما وفى قوة شعورهما وتعبيرهما البسيط الهادف وحبهما للأشياء الجميلة فى الطبيعة ؛ تلك الأشياء التى كانا ينفعلان بها .

ويضعه بعض الأدباء فى مصاف الشعراء من أمثال « دى موسيه » و « كيتس » ولسلاسة شعره وتدفقه وضعه « سوينبرن Swinburne » إلى جانب أعظم الشعراء الغنائيين ماعدا « سافو » و « شيلى » من بين الذين يعرفهم « سوينبرن » . وعندما علق على اشعاره « إيليس » Ellis و « منرو » Munro اللذان عكفا على دراسة كاتوللوس ، نظرا إليه كشاعر فى مرتبة « سافو » و « الكايوس » إن كاتوللوس نفسه تنبأ بالخلود لشعره . ويظهر هذا التنبؤ من وعده لأصدقائه بمديح خالد ، ولأعدائه بخزى على مر الأيام . وقد تحقق هذا التنبؤ .

لقد أخذ كثير من أدباء العالم بشعر كاتوللوس فترجموا أجمل أشعاره أو حاكوها ويكفى أن نذكر

بعضهم وهم من أدباء الإنجليز : « پوپ» Pope و « كولى » Cowley و « والسن » Walsh و « أولدهام » Ooldham و « بن چونسون » Ben Jonson وغيرهم . وكان « هريك » من أهم شعراء الإنجليز المعجبين بكاتوللوس ، فقد كتب « هريك » على غرار كاتوللوس مقطوعات غنائية قصيرة ، كما كتب عدة أغانى للزواج (epithalamia) وأهاجى كثيرة ومرثية عن موت أخيه . ولأوجه الشبه بينه وبين كاتوللوس أطلق بعض النقاد عليه «كاتوللوس الانجليز» English Catullus . وهناك شبه بين الشاعرين فى الموضوعات والأسلوب ، سوى أن شعور كاتوللوس يبلغ ذروته فى الانفعالات الصادقة بالحب والكراهية تلك الانفعالات التى تتدفق من قلبه . أما مشاعر هريك فهى نتيجة لتجارب بارعة من التخيل استوحى شخصياتها من نسج اخياله .

وولد « كايوس ڤاليريوس كاتوللوس » C. Valerius Catullus حوالى سنة ٨٤ ق‌م . فى بلدة « ڤيرونا » بشمال إيطاليا . وكان والده من الرجال المعدودين ويمتلك إقطاعية ومنزلا ريفياً فى شبه جزيرة « سيرميو » حيث بحيرة « جاردا » التى كانت تذهب إليها أسرته فى الصيف . ومن المحتمل أن كاتوللوس كان يقضى الصيف والخريف بها بينما كان يقضى الشتاء والربيع فى موطنه « ڤيرونا » ومن المحتمل أيضاً أنه تلقى بها علومه فى البلاغة التى كان يهتم بها الرومان والتى كانت تكوّن جزءاً هاماً فى التعليم عندهم ، ومن الجائز أنه أضاف إلى هذه الدراسات تعاليم « ڤاليريوس كاتو » وقد ذكر المؤرخ « سويتونيوس » أن «كاتو» كان يحاضر أبناء الأثرياء فى الشعر بالقرب من « ڤيرونا » . ويعتبر « كاتو » أول من عرّف الرومان بشعراء الإسكندرية وكان له تلاميذه وتكونت على يديه مدرسة من الشعراء الشبان . وأصبح كاتوللوس بمساعدة أستاذه « كاتو » على علم بشعراء اليونان من جميع العصور منذ هوميروس حتى شاعر الإسكندرية « كاليماخوس » .

وكما كانت « ڤيرونا » ميداناً لتعاليمه كانت أيضاً مسرحاً لملذاته ، ذلك أن شاعراً غضاً ذا أب ثرى مثل كاتوللوس لابد أن تفتنه مظاهر الحياة البهيجة فى هذه المدينة التى خلعت عليها الطبيعة محاسنها إذتحيط بها الجبال التى تغطيها الثلوج فى الشتاء وتكسوها الكروم الخضراء فى الصيف ، ويحيط بها النهر فى شكل ثلثى دائرة كما تجملها بحيرة « جاردا » القريبة منها والتى تعتبر من أجمل بحيرات إيطاليا . ومما لاشك فيه أنها كانت قديماً — كما هى الآن — محاطة بمروج خضر تنمو فيها الأعناب وأشجار الزيتون وغيرها . ولا غرابة فى أن يلهم مثل هذا الجمال شاعرية شاب مثل كاتوللوس . ولاشك أن مثل هذا الشاب الغض الذى ينتمى إلى أسرة ثرية عرضة للانغماس فى اللهو والملذات. وترسم لنا مقطوعاته الشعرية (٣٢ ، ٤١، ٦٧، ١٠٠، ١١٠ ، ١١١) صورة عن حياته فى ڤيرونا ومنها نجد أنه كان له أصدقاء من شباب ڤيرونا يشاركونه حياته العابثة ، وهو يسجل فى هذه المقطوعات غرامياته مع النساء المتزوجات والعاهرات فى بلدته . وبذلك يخبرنا — من خلال أشعاره — أنه بدأ حياته شاعراً غزلا ورجلا محباً للملذات فى أيام شبابه الأولى وقد شجعته الحالة التى وصلت إليها المرأة فى عصره — كما شجعت غيره من الشبان — على حياة العبث واللهو . ذلك أن الحالة السياسية والاجتماعية قد انهارت تدريجياً منذ نهاية الحرب البونية بين روما وقرطاجنة . فقد ساء

سلوك حكام الرومان الذين بسطوا سلطانهم على أمم كثيرة وأصبحوا قادرين على حكم أنفسهم مما أدى إلى نشوب ثورات وحروب أهلية متتابعة استمرت قرابة خمسة أجيال وتركت روما فى حالة سيئة سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية . كذلك تحطمت الأسس المتينة التى كانت تقوم عليها الأسرة الرومانية فى العصور القديمة ، فابتعد أفرادها عن البساطة والأخلاق القويمة التى كان يتحلى بها الرومان . وتمتد جذور هذا التحول فى الواقع إلى ما قبل عهد قيصر ، ففى الفترة بين موت « جراكوس » (١٢٣ ق . م) وموت سلا (٧٨ ق . م) تحررت الزوجة والابنة من رقابة الزوج والوالدين ، ويدلنا على ذلك استنكار بعضهم لهذه الفوضى ، حتى قال أحد النقاد فى مجلس الشيوخ الرومانى : « إن النساء سوف يجعلن من أنفسهن سادة لنا » . لقد أصبح لهن من الحرية ما يفوق ما كان للرجال ؛ بل كان لهن من البذاءة ما يخجل منه الرجال أنفسهم . والأدب اللاتينى — خلال السنين الأخيرة من الجمهورية وأوائل عصر الإمبراطورية — ملىء بالأمثلة على تلك الإباحية، وهاك — على سبيل المثال — ما يصف به المؤرخ « ساللوست » السيدة «سمپرونيا» والدة « ديكيموس بروتس » ، والتى كان لها ضلع فى مؤامرة « كاتيلينا » ! إذ يقول : « لقد حباها الحظ الجمال والأصل العريق ، وكانت قريرة العين بزوجها وأطفالها ، ولها إلمام بالآداب اليونانية والرومانية ، وكانت كذلك مدربة على الرياضة والرقص بما يتجاوز ما تتطلبه المرأة النبيلة ، وهى على معرفة بمعظم تلك الفنون التى تعرض وسائل التسلية . ولكن ليس للشرف أو العفة أية قيمة عندها ولم تكن تقيم وزناً للمال أو السمعة الطيبة . لقد أطلقت العنان لنزواتها، حتى أنها كانت تبدأ فى مطارحة الرجال الغرام ولا تنتظرهم حتى يقوموا بالخطوة الأولى » وقريبٌ من هذا الذى تحدث به « ساللوست » عن « سمپرونيا » ما ذكره المؤرخ « تاكيتوس » عن ابنة «أوغسطوس» وحفيدته اللتين كانتا تدعى كل منهما « چوليا » . وكذلك ما ذكره الشاعر « چوڤيناليس » عن«ميسالينا» زوجة « كلاوديوس » ووصفه إياها بالتهتك والفجور وكيف أنها كانت تشبه العاهر .

ولقد كانت « لسبيا » عشيقة شاعرنا كاتوللوس واحدة من هؤلاء النسوة المتحررات . وكان اسمها هذا الموجود فى أشعار كاتوللوس رمزاً مستعاراً لشخصية « كلوديا » زوجة « ميتيللوس » الذى قام بدور هام فى هزيمة قوات « كاتيلينا » المسلحة وكافأه على ذلك شيشرون بمنحه حكم ولاية بلاد الغال "Gallia Cisalpina" وقد رحل « ميتيللوس » فى ربيع سنة ٦٢ ق . م مع زوجته إلى بلاد الغال لحكم الولاية . ومن المحتمل أنه خلال العام الذى كان فيه « ميتيللوس » حاكماً على هذه الولاية قابل كاتوللوس « كلوديا » فى ڤيرونا وبدأت قصة غرامهما التى يمكن تتبع مراحلها المختلفة فى مقطوعات كاتوللوس الذى كان حينئذ فى العشرين من عمره تقريباً . وربما كانت له تجارب عاطفية مع أخريات مثل « إپسيثيلا » و « أوفيلينا » وغيرهما . ولكنه كان أكثر تعلقاً بلسبيا إذ استمرت علاقته بها مدة طويلة . ولم يكن حبه للمعشوقات الأخريات كحبه للسبيا عميقاً صادراً من أغوار نفسه . لقد كان لقاؤه لها فى « ڤيرونا » نقطة تحول فى حياته وكتاباته .

وفى سنة ٦١ ق . م تبع محبوبته إلى روما حيث الحياة الصاخبة التى تختلف عن الحياة فى ڤيرونا وانضم

إلى زمرة رجال الأدب من الشعراء الشبان تلك الزمرة التى كانت مكونة من شعراء صغار السن أتى معظمهم من شمال إيطاليا وجميعهم يدينون بالولاء لفاليريوس كاتو . وكانوا معجبين بمدرسة الإسكندرية ونظروا إلى فهم نظرة جدية وأنفقوا من وقتهم الكثير فى مناقشة المبادىء التى عليهم أن يتبعوها فى كتاباتهم . وكانت نتيجة حركتهم النقدية رفع الأدب اليونانى إلى مكانة سامية وإظهار ما كان عليه الشعر اللاتينى الأول من خشونة وطابع فج . وفى ذلك العصر ابتعد الشعراء عن التراجيديا وملاحم اليونان الطويلة واتجهوا إلى شعر الإسكندرية الذى كان أكثر سهولة وقلدوه . وكان شعر الاسكندرية يختلف فى شكله ومضمونه عن شعر العصر الهيلليني ، إذ كانت الإسكندرية العاصمة الأدبية للعالم اليونانى منذ سنة ٣٠٠ ق . م حتى سنة ١٤٥ ق . م تقريبا وكانت فى عصر البطالمة ميدانا لحركة أدبية واسعة تشع فى متحف الإسكندرية ومكتباتها ولم يقتف أدباؤها آثار هوميروس والعصر الأثينى بل طرقوا « الملحمة القصيرة » و « الأناشيد » و «الأليجية» (أشعار تظهر الحزن والأسى) و « الابيجرامة » (مقطوعات شعرية قصيرة لاذعة) و « الأساطير » وغيرها . وابتدأ الشعراء يعبرون عن مشاعرهم وظهرت روح رومانتيكية فى كتاباتهم .

ويظهر تأثير مدرسة الاسكندرية بوضوح فى شعر كاتوللوس الذى رأى أن لشعراء الاسكندرية الصدارة من ناحية الأسلوب كما يعترف كاتوللوس نفسه بفضل أدباء الإسكندرية إذ يذكر فى السطر الأول والثانى من مقطوعته (١١٦) أنه يرسل إلى « جيليوس » مقطوعة ليست من بنات أفكاره بل من شعر « كاليماخوس » الشاعر اليونانى وكما يظهر من مقطوعته الخامسة والستين أنه كان يكتب متمثلا أعمال «كاليماخوس » . ونحن نعلم كيف أن مقطوعة كاتوللوس «خصلة بيرونيكيس» (٦٦) وهى أربعة وتسعون بيتا ومعظمها ترجمة عن الشاعر كاليماخوس » ومن حسن الحظ أن عثرنا على عشرين بيتاً من مقطوعة « كاليماخوس » التى تحمل نفس العنوان وتدل على أمانة كاتوللوس فى ترجمتها . كما توجد لكاتوللوس مقطوعات أخرى تدل على بعض مظاهر شعر الإسكندرية كالملحمة الصغيرة الرابعة والستين والتى تدور حول «تيسيوس وأريادنى» . ولقد كانت الروح الرومانتيكية والفلسفية والترجمة الدقيقة ودراسة نظم الشعر وتقدير العبارة النادرة والبعد عن الأعمال المطولة والنفور من الشعر اللاتينى القديم — الأمر الواضح فى كتابات الشعراء الرومان فى ذلك الوقت — كانت جميعها من سمات مدرسة الاسكندرية.

لقد ارتفع كاتوللوس إلى مستوى الشعراء اليونان أكثر من أى شاعر آخر فى الإسكندرية بدراسته شعراء الإسكندرية واليونان فضلا عن أنه كان شاعرا مبتكرا كما سنوضح فيما بعد .

قضى كاتوللوس ثلاث سنين (٦١ — ٥٨ ق.م) فى روما وربما فى « باياى » Baial بإقليم كمبانيا أوفى مكان ماسار مكرسا جزءاً من وقته للشعر ولكن اهتمامه الأكبر كان بمحبوبتـــه « لسبيا » ومخالطة أقرانه من الشبان أمثال « ڤاروس »و« فلاڤيوس » و «كاميروس» وعشيقاتهم . حدث فى سنة ٥٧ق . م أن قبل كاتوللوس وظيفة تحت حكم « ميميوس » فى « بيثينيا » بآسيا الصغرى وكان ميميوس يهوى الشعر وربما كان هذا هو سبب اختيار كاتوللوس . وكان كاتوللوس يأمل أن يجمع ثروة من هذه الوظيفة بعد أن أصبح فى حاجة إلى المال بسبب ما أنفقه على ملذاته . وبعد سنة من

عمله الرسمى عاد إلى وطنه كئيبا دون أن يحقق أمنيته من هذه الرحلة وقد عزى ذلك إلى مسلك «ميميوس» السيء . وأثناء تلك الرحلة زار قبر أخيه الذى توفى فجأة فى « تروأد » Troad ولا يعرف التاريخ الحقيقى لوفاته .

إن كاتوللوس كثيراً مايشير فى مقطوعاته إلى أخيه والأسى يملأ قلبه فقد أزعجته وفاته وسببت له حزناً عميقاً . إن ذهابه إلى « بيثينيا » ساعده على أن ينسى حبه للسبيا التى أخذت تغير من سلوكها معه ، ولو الى حين . وقد أوحى له الشرق بموضوعات جديدة إذ كان على اتصال بشعر الإسكندرية مما الهمه مقطوعته « أتيس » Attis التى كانت بعيدة عن الروح والحياة الرومانية واليونانية بل كان لها علاقة بأرض « ڤرجيا » وأماكن عبادة الإلهة «كوبيلى» Cybele وقد هيأت له أيضاً كتابة مقطوعته المشهورة « چيليوس وثيتيس » Peleus et Thetis فاستمد بعضاً من مادتها أثناء مروره بجزر اليونان . إذن فقد عاد كاتوللوس إلى وطنه فى ربيع سنة ٥٦ ق . م ، وقد وصف رحلة عودته فى قارب شراعى اشتراه خصيصاً لهذه الرحلة فى مقطوعته الرابعة . قضى كاتوللوس بعد عودته من رحلته ، السنتين الأخيرتين من حياته يتنقل بين « سرميو » Sirmio ، التى تقع على الشاطىء الجنوبى لبحيرة « جاردا » ، وبين « ڤيرونا » وكان يتردد على روما فى زيارات قصيرة .

جرى معظم الأدباء على تقسيم مقطوعات كاتوللوس إلى ثلاثة أقسام :

أولها : المقطوعات الأولى حتى المقطوعة الستين ، وهى مقطوعات قصيرة بعضها يحمل الطابع الغنائى أو العاطفى أو طابع المرح أو طابع السخرية والهجاء .

ثانيها : مقطوعات أربع أطول من المقطوعات السابقة ، اثنتان جعلهما من أناشيد الزواج ثم مقطوعة يعبر فيها عن عبادة « آتيس » Attis ثم ملحمة قصيرة عن قصة « پيليوس وثيتيس » .

وثالثها : المقطوعات التى تبدأ من الخامسة والستين وتنتهى بالمقطوعة السادسة عشرة بعد المائة ، وهى مقطوعات قصيرة ولها طابع الابيجرامة (الأهجيه) وهى متنوعة فى محتوياتها والروح التى كتبت بها مثل المقطوعات الستين الأولى . ونجد المقطوعات الخاصة بمحبوبته « لسبيا » فى ثنايا المجموعة الأولى والثالثة .

وقد كان ديوان كاتوللوس صورة صادقة لأفراحه وأتراحه التى واجهته فى حياته ، والمقطوعات التى يحتويها ذاتية ، ولا نستثنى منها إلا خمس مقطوعات أو ستا ، صور فيها حبه وكرهه ، سعادته وبؤسه ، وإعجابه واحتقاره .

وكان حبه للسبيا أعظم بواعث سعادته وحزنه وأظهر مقدرته الشعرية فى أوج قوتها . إن شعر كاتوللوس العاطفى كان السبب الرئيسى فى شهرته فقد عرف بأنه شاعر الغزل . وهو قد خاض غمار هذه التجربة العاطفية ولم يحك لنا فى شعره حب غيره فكان كلامه عن الحب نابعاً من أعماق نفسه . وقد تغنى كاتوللوس بلسبيا التى لم تكن سوى «كلوديا» Clodia إبنة « أپيوس كلاوديوس » وأخت « پوبليوس كلوديوس » ، عدو شيشرون ، وزوجة «كوينتوس كايكيليوس ميتيللوس كيلر » . ويخبرنا الشاعر « أوڤيديوس » أن المقصود من اسم « لسبيا » هو إخفاء الإسم الحقيقى(١) . وكذلك يذكر « أپوليوس »

---

(١) Ovid Trist. II. 427.

Apuleius (القرن الثانى بعد الميلاد) أن الاسم الحقيقى للسبيا هو « كلوديا »[1]. ويؤكد حقيقة كلامه ذكره فى نفس المكان محبوبات الشعراء الآخرين أمثال « تيبوللوس » و « پروپرتيوس » وغيرهما تحت أسماء مستعارة ، فيقول مثلا إن محبوبة « پروپرتيوس » وهى « كينثيا » كانت « هوستيا » ويشير كاتوللوس نفسه فى مقطوعته السابعة والسبعين التى كتبها فى سنة ٥٨ ق . م إلى « ماركوس كايليوس روفوس » الذى أصبح عشيق « كلوديا » فى أواخر سنة ٥٩ ق . م وبذلك سلب كاتوللوس أعز ما يملك وقد كان « روفوس » يعيش معها فى منزلها على تل البلاتينوس وقد اتهمت لسبيا أخيراً « روفوس » الذى دافع عنه شيشرون فى خطبته المعروفة « دفاعاً عن كايليو » Pro Caelio . كما يتحدث كاتوللوس فى مقطوعته التاسعة والسبعين عن « لسبيوس » Lesbius رامزا بذلك إلى أخى « لسبيا » ويطلق عليه لقب « الجميل » Pulcher : وهذه الملحة كثيراً ما يتندر بها شيشرون على اسم « كلوديوس » ويشير إلى علاقات العشق بين « كلوديا » وأخيها « كلوديوس » . وتقدم هذه الكلمات البرهان على صحة الرأى القائل بأن « لسبيا » هى « كلوديا » . بعد أن تعرف كاتوللوس على لسبيا التى ملكت عليه شغاف قلبه اتخذ شعره صيغة جديدة . حقـاً إن كاتوللوس قد ذكر أسماء بعض من محبوباته فى قصائده مثل « هيبسيثيلا » وغيرها ولكن حبه لهن لم يكن متغلغلا فى أغوار نفسه وعلى العكس من ذلك عندما كان يتغزل فى لسبيا فان قلبه كان يهمس باسمها فى كل بيت . كان كاتوللوس حينذاك فى العشرين من عمره وكانت لسبيا تكبره بعشر سنين تقريباً أى كانت تقرب من السن الذى تعتبر فيه المرأة ــ كما اعتقد الشاعر « أوڤيديوس » ــ فى ذروة جاذبيتها وفتنتها "femme de trente ans" . ولا نشك فى أنها كانت جميلة وقد خلع عليها شيشرون صفة « عيون المها » . تلك الصفة التقليدية التى كانت تطلق على ملكة السماء . وقد اعتبر كاتوللوس شبيهة بالإلهة « جونو » فى جمالها وعظمتها كزوجة للإله « جوبيتر » .

وأول مقطوعة يتحدث فيها كاتوللوس عن محبوبته لسبيا هى المقطوعة الحادية والخمسون وتصف ولع كاتوللوس بحبها وكيف أنه كان كالمتعبد أمام معبودته فقد سلبته حواسه فألجم لسانه واضطربت أوصاله ، وأخذت أذنيه دوامة من الأصداء وعلت عينيه غشاوة من ظلام دامس . وتعتبر هذه المقطوعة ترجمة عن الشاعرة اليونانية « سافو » مع بعض التصرف . وربما كان تهيبه فى كتابته للأشعار هو الذى دفعه لأن ينقل أفكار غيره وكلماته ، ولكن كاتوللوس لم يدرك أن حبه للسبيا يختلف فى كثير من الوجوه عن حب سافو لصديقتها . ويقال إن سافو بأبياتها الموجهة إلى إحدى فتيات جزيرة « لسبوس » قد أوحت إلى كاتوللوس بأن يستخدم لفظ « لسبيا » كاسم مستعار لحبيبته . وربما كتب كاتوللوس هذه المقطوعة فى سنة ٦٢ ق.م ولا شك أنها أدخلت السرور على قلب محبوبته وأنها قربته منها وأصبح صديقاً لها . ويتحدث فى مقطوعته الثانية عن عصفور محبوبته المدلل وكيف كانت تلعب معه وتضمه إلى صدرها وتقدم له أصبعها فيحاول نقره وكأن ذلك سلوى وعزاء لها عن بعد حبيبها (كاتوللوس) . وكيف أنه كان يتمنى أن يلعب معه مثلما تفعل حتى يكون ذلك عزاء له أيضاً عن بعد محبوبته (لسبيا) . ثم يتحدث فى مقطوعته الثالثة عن موت هذا العصفور

(١) Apul. Apol. 10.

والأسى يملأ قلبه . إن شعره عن عصفور محبوبته يضم أبياتاً تذوب رقة وبهجة ، كما نلحظ فيها حالة الهذيان التى تصاحب العواطف المتأججة . وقد كتب هذه المقطوعات الثلاث غالباً فى ڤيرونا فى تاريخ لا يتعدى بداية عام ٦١ ق . م . ويبدو فيها كاتوللوس على أنه معجب ولهان . أما المقطوعتان التاليتان وهما « دعوة للحب » — الخامسة — و « قصة القبلات » — السابعة فيحتمل أنهما كتبتا فى روما حيث تبع « كلوديا » فى سنة ٦١ ق . م . ويبدو منهما أن لسبيا قد فتحت له قلبها . كما يظهر فيهما فرط سروره برضاها وقبولها إياه كحبيب ، إذ يقول فى قصيدته « دعوة للحب » :

يا عزيزتى لسبيا — دعينا نحيا ونحب ولا نأبه لشائعات العجائز ... إن فى استطاعة الشموس أن تغرب وتشرق ثانية ولكن إذا انطفأ ضوؤنا القصير فاننا سوف ننام معاً فى ليل أبدى . امنحينى ألف قبلة ثم مائة ثم الفا ثم مائة أخرى . وعندما نحصل على آلاف القبـــلات فسوف لا نعرف عددها ويمسى الحسود تائهاً لا يدرى من عددها شيئاً » .

ومن هاتين المقطوعتين اقتبس كثير من أدباء الإنجليز .

ويقول كاتوللوس فى مطلع « قصة القبلات » .

« إنك تسألينى ياعزيزتى لسبيا كم من القبلات تكفينى أو تزيد على حاجتى — أريد من القبل عدد حبات الرمل فى ليبيا التى تشاهد على سواحل برقة المعطرة بين معبد چوپيتر (آمون) وقبر « باتوس » القديم والمقدس . أو كعدد النجوم التى تشاهد المحبين فى هدوء الليل ... » .

وتعد هذه المقطوعات الخمس أول مظاهر الحب عند كاتوللوس ونلمح فيها كذلك سعادته بذلك الحب الموفق . ولكن يبدو أن كلوديا بعد ذلك أخذت تغير من سلوكها معه وأخذت تختار آخرين من المعجبين . وربما كانت الفرصة سانحة فى بلدة مثل ڤيرونا حيث حياة الريف المملة — أن يستحوذ شاب شاعر على قلب تلك السيدة اللعوب ولكن الأمركان يختلف فى مدينة كبيرة مثل روما حيث الملذات العديدة وحيث تجمع حولها كثير من المعجبين ، كل يطلب ودها ، ويمكن أن تختار من يحلو لها ، خاصة وأن أعباء زوجها قد زادت وانشغل عنها بواجباته الكثيرة . ويبدو لنا ذلك جليا من مقطوعته الثامنة والستين حيث يتحدث عن عدم إخلاصها ولكنه يأمل فى الوقت نفسه أن يكون حبيبها المفضل فيقول : « إنها لاتقنع بكاتوللوس وحده إلا أننى سوف أتحمل خداعها المؤقت » .

وما زال كاتوللوس يعتقد أنها ملك له وحـــده وبطريقة تدعو إلى الرثاء يحذر المعتدين على حقه من غرمائه مثل « كوينتيوس » و « راڤيدوس » و « جيليوس » ففى المقطوعة الثانية والثمانين مثلا يقول :

« أى يا كوينتيوس ، إذا أردت أن يدين كاتوللوس لك بعينيه أو بأى شىء آخر أعز لديه من عينيـــه ، فلا تغتصب منه ما هو أعز كثيراً عنده من عينيه أو من أى شىء أعز منهما » .

وإذن فقد أصبح لكاتوللوس غرماء فى حبه للسبيا وأصبح — كما يقول — محباً صابراً ولكنه لم يكن فى الحقيقة كذلك بل كان بعيداً عن السعادة وأخـــذ فى شعره منذ ذلك الحين يعزف على أوتار أخرى .

وأما قصائده التى تنم عن الهجر فمن المحتمل أنها كتبت أثناء حياة « مينيللوس » أى فى سنة ٦٠ أو فى أوائل سنة ٥٩ ق . م ولكن فى أواخر سنة ٥٩ ق . م مات زوجها ويشك فى أنها قد دست له السم وقد

شبهها « روفوس » بكلايتمنسترا (التى قتلت زوجها « أجا ممنون ») وكان بطبيعــة الأمر ، أن تظهر « كلوديا » شيئاً من الاحترام عند ماكان زوجها على قيد الحياة وكان لها العذر فى موقفها من شاعر عاشق ولهان . ولكن بعد وفاة زوجها أطلقت لها الحرية . حقاً إنها أصبحت تحت إشراف أخيها « سكسنوس كلوديوس پولكر » عدو شيشرون اللدود ولكن لم يمنعها هذا الإشراف من أن تصبح حرة لها استقلالها وهى حينذاك أرملة فى الخامسة والثلاثين ولها ثروة واسعة . وكان أول عمل قامت به واستغلت فيه هذه الحرية هو استقبالها « ماركوس روفوس » فى منزلها على تل الپلاتينوس وكان « روفوس » صديقاً حميما لكاتوللوس ومن أعظم الرجال المخاطرين فى عصره . أما كاتوللوس فقد تأثر بهذه العلاقة التى كانت بين « كلوديا » و « روفوس » والتى كانت ضربة قاسية موجهة إليه فوجــه إليه كلماته اللاذعة فى مقطوعته السابعة والسبعين :

« أى ياروفوس ، يامن ضاعت ثقتى فيك كصديق عبثاً وهباء ... أتداهننى وتلهب أحشائى وتسلبنى ، أنا التعس ، جميع مسراتى ؟ لقد سلبتنى إياها ، ياسم حياتى القاتل وياطاعون صداقتى . إنه ليحزننى الآن أن تلطخ شفتى محبوبتى العذبتين بقبلاتك الدنسة . لكنك لن تنجو من العقاب إذ ستعلم جميع الأجيال بأمرك ، وستكون سيرتك مضغة فى الأفواه لردح طويل من الزمن » .

وكان من العسير عليه ، بطبيعة الأمر ، أن يتحرر فجأة من صلته بها ، بعد أن علم بأمر خيانتها له . وكان هناك صراع مستمر بين حبه إياها واحتقاره لها . ونلحظ ذلك فى المقطوعة الخامسة والسبعين حيث يكتب إليها مازجا الذم بعاطفة الحب .

« لقد ساقنى تفكيرى فى خيانتك إلى الحد الذى لا أستطيع أن أتخلى عن حبك مهما فعلت » . وفى المقطوعة الثانية والسبعين يقول : « لقد عرفتك الآن حقاً . ولذا فانى بالرغم من ولعى بحبك أكثر من ذى قبل إلا أنك فى نظرى أكثر احتقاراً وضعة » . وقد بلغ الصراع بينه وبين عواطفه مداه فى المقطوعة الخامسة والثمانين حيث يقول :

« إننى أحب وأكره ربما تسأل ، كيف أفعل ذلك ؟ لست أدرى ، غير أننى أحس أن الأمر كذلك وأننى أعذب » .

وبالرغم من أنه كان يوجه فى قصائده اللوم للسبيا إلا أنه كان يتحدث بضعف ويبدو من وقت لآخر عبداً لها .

ففى المقطوعة الثانية والتسعين يقول : « إن لسبيا تكيل لى الشتائم دائما ولا تتوقف عن الكلام عنى . الموت لى إن لم تكن لسبيا تحبنى ! إننى ابتهل إلى الله أن أبتعد عنها نهائيا ، ولكن الموت لى إن كنت لا أحبها » .

وفى المقطوعة الثامنة نلمح محاولته التخلص من حبه لها ، ذلك الحب الذى جعله كالمجنون :

« ابتعد أيها البائس ، كاتوللوس ، عن جنونك واعتبر ماتراه قد مضى وما ضاع قد هلك . إن الأيام الحلوة قد أشرقت فى وجهك يوما ما عندما كنت تذهب دائماً إلى حيث تقودك فتاتك التى أحببتها إلى حد سوف لا يصل إليه حبك لأية فتاة أخرى » .

وقد استجمع كاتوللوس شجاعته وقرر أن يحرر نفسه من علاقته بلسبيا فى ربيع سنة ٥٧ ق . م، وقد ساعده على ذلك أمران ، الأول هو وفاة أخيه فى « ترواد » Troad الذى حزن لموته حزناً عميقاً والثانى

هو قبوله لوظيفة فى « بيثينيا » مع الحاكم الرومانى « ميميوس » . استقر رأيه إذن على تركه للسبيا وكتب المقطوعة السابعة والثمانين ليودع ذلك الحب الذى كان بينهما : « لا يمكن لأية امرأة أن تقول بأن إنساناً قد أحبها حقاً بمقدار ما أحببتك يا عزيزتى لسبيا ، ولم يكن هناك أبداً أى إخلاص لأى من عهود الحب مثلما كان أمرى ظاهراً فى حبى إياك » .

وبعد سنة ٥٧ ق . م ، لم يشر إلى لسبيا إلا بثلاث مقطوعات هى (٥٨ ، ٣٧ ، ١١) . رفع المقطوعة الثامنة والخمسين إلى « كايليوس روفوس » حيث يتحدث عن حبه للسبيا وكيف أنه قد أحبها أكثر من أى شخص آخر حتى من نفسه وكيف انحدرت إلى الحضيض وأصبحت كالبغى التى تنادى على الرجال :

« إنها لسبيا التى أحبها وحدها كاتوللوس أكثر من نفسه ومن جميع مقربيه . إنها تنادى الآن ذرية « ريموس » الهام فى مفترق الطرق والأزقة » .

أما المقطوعة السابعة والثلاثون فقد رفعها إلى صديقه «كورنيفيكوس» وذكر فيها كيف كانت لسبيا غائصة فى أعماق الرذيلة وقد اجتمع حولها العشاق من أمثال « إجناتيوس » وغيره فى أحد بيوت الدعارة :

« ... إذ أن فتاتى التى هربت من بين أحضانى ، فتاتى التى أحببتها حباً سوف لا يعدل حبى لفتاة أخرى والتى أبليت فى حبها بلاء حسناً قد جلست هناك فى بيت الدعارة » .

ويعان فى المقطوعة الحادية عشرة براءته من حب لسبيا وهذه المقطوعة مرفوعة إلى صديقيه « فوريوس» و « أوريليوس » حوالى أواخر سنة ٥٥ ق . م ويطلب منهما أن يحملا رسالته الأخيرة إلى لسبيا ويحتمل أن لسبيا قد أظهرت رغبتها « انظر المقطوعة ١٦ » فى أن ينضم كاتوللوس ثانية إلى زمرة أصدقائها . وتحتوى الرسالة على قدح لاذع موجه ضـــد لسبيا ممزوج بقوة فى التخيل والتعبير عند تصويره لإقلاعه عن حبها نهائياً ، إذ يقول :

« احملا هذه الكلمات القليلة الجارحة إلى فتاتى . دعاها تحيا وتسعد بعشاقها الذين تحتضن منهم ثلاثين فى وقت واحد فى حين أنها فى الحقيقة لا تحب أياً منهم ، بينما تحطم دائماً قلوبهم جميعاً . لا تدعاها تنظر إلى حبى مرة أخرى بعين الماضى ، ذلك الحب الذى سقط لسبب إثمها مثل زهرة على حافة سهل بعد أن خدشها المحراث أثناء مروره عليها » .

وقد وصفها شيشرون بأبشع الصور فى خطبته « دفاعاً عن كايليوس روفوس » فيصمها بالفجور والتهتك والخـــلاعة . إن ما ذكره « كاتوللوس » و « شيشرون » و « روفوس » يعطينـــا صورة لشخصية « كلوديا » ومنها نلحظ أنها كانت منبع إعجاب عاطفى . لقد كانت امرأة جميلة تشبه فى مفاتنها الإلهة « چونو » ذات مجلس شائق يأخذ بألباب معجبيها ، كما كانت على درجة من الثقافة استهوت رجال الأدب من شعراء وخطباء . وكان لها منزل على تل « البلاتينوس » قرب نهر التيبر حيث كانت تقضى ليالى الشتاء مقيمة الولائم والرقص وأنواع اللهو المختلفة ثم تذهب فى الصيف إلى حمامات « باياى » منغمسة بصورة متحررة فى أنواع التسلية المختلفة . ولكننا لا نستطيع تقبل جميع الأوصاف التى خلعها على لسبيا كل من « شيشرون » و « كاتوللوس » ، ولا نتقبل مثلا تأكيد قتلها لزوجها أو أنها كانت عشيقة أخيها « كلوديوس » إذ أننا لا نملك من

البراهين ما يؤيد مثل هذا الزعم . إن عداء «شيشرون» لكلوديوس وحقد كاتوللوس عليها كانا داعيين لأن يذيعا هذه الشائعات ولكن نستطيع أن تعتقد أن ما تحدثا به عن انغماسها فى الملذات له نصيب كبير من الصحة .

وفى شعر كاتوللوس مقطوعات لا تنتظمها مجموعة مميزة ولكن يمكن أن يطلق عليها « شعر الإخوانيات » .

وكلها تعبير عن المحبة الصادقة وإظهار لعواطف المــودة إزاء أصدقائه ويمــتزج فيها إحساسه بمشاعر أصدقائه السعيدة . ولقد كان شاعرنا بين القدماء فارس هذا الميدان دون منازع .

نشاهد ذلك مثلا فى كلماته عن صديقه الشاعر « كالڤوس » الذى كشف عن العطف والحب و المودة عند ما يصف ليلة سارة قضياها معا وكيف أنه كان مشوقاً لرؤيته والتحدث معه ويناجيه بقوله« يا نورعينى» ويشيد فيها بمقدرة صديقه كشاعر ، كما يبدو لنا أنه يتواضع فى تقديره لنفسه وعبقريته بالكلام عن مقدرة صديقه « المقطوعة الخمسون » ؛ بل إنه يذكر فى المقطوعة الرابعة عشرة أنه يحبه أكثر من عينيه .

كان يكتب دائماً إلى أصدقائه مقطوعات تنم عن حبه وتقديره الرقيق لهم . وكانت كلماته لهم تصدر عن قلبه وتكشف عن الحنين والمودة القلبية فى قالب بديع من التعبير ، كما نرى فى كلماته الطريفة ذات الملامح الفكهة التى يناجى فيها أصدقاءه « ڤيرانوس » و « فابوللوس » و « فلاڤيوس » « وكاميريوس » إنه يحيى « ڤيرانيوس » عند عودته من أسبانيا قائلا : « ياڤيرانيوس ، يامن تفــوق مكانتك عندى ثلاثة آلاف صديق هل عدت إلى وطنك وإلى آلهة أسرتك وإلى أخيك الحبيب ووالدتك العجوز ؟ هل عدت ؟ يا للأخبار السارة لى ؟ إننى سوف أراك سالماً وأسمعك تتحدث عن قبائل الأسبان وبلادهم وأعمالهم كما هى عادتك . سوف ألثم فاك وعيونك الفرحة عندما أعانقك أيها السعداء ، من أكثر منى فرحاً أو سعادة ؟ » (المقطوعة التاسعة) . كل كلمة فى هذه القصيدة تسحرنا ببساطتها وتحل من الجملة فى أنسب مكان ونحس فيها حرارة العاطفة التى صدرت عنها . ويذكر فى مقطوعته الثالثة عشرة ، تلك التى تتسم بالمزاح والمرح أن صديقه « فابوللوس » سوف يتناول العشاء معه ولكنه يطلب من صديقه أن يحضر معه كل ما يلزم للعشاء من خمر وفتاة جميلة وجميع أدوات التسلية ذلك لأن كيس نقود شاعرنا قد خيم عليه العنكبوت ولن يقدم لصديقه إلا عطراً إذا داعب أنف « فابوللوس » سيطلب من الآلهه أن تحول جسده كله إلى أنف . ونلمح فى هذه المقطوعة رقة كاتوللوس عندما يناجى صديقه قائلا « يا صديقى الوسيم » وصراحته ودعابته عندما يتعرض لوصف كيس نقوده الذى ضربت عليه العنكبوت بنسجها وكيف أن صديقه سوف يصبح كلية أنفا عندما يحس رائحة العطر . وكان يرغب فى أن يعرف كل شىء عن أصدقائه ويتوقع أن يجعلوه موضع أسرارهم وكان يبدى استعداده لأن يشيد بأعمالهم فى قصــائده وذلك كما نلحظ فى مقطوعته السادسة المرفوعة إلى « فلاڤيوس » الذى يطلب منه كاتوللوس أن يفضى إليه بغرامياته وعشقه لأنه مستعد أن يشيد بها فى شعر مرح . وكان يفتقد أصدقاءه عندما يتغيبون كما نلحظ فى المقطوعة الخامسة والخمسين التى يتحدث فيها عن « كاميروس » وكيف أنه أخذ يبحث عنه فى كل مكان فى المدينة وأن يظن أنه بين أحضان عشيقاته ولكنه سوف يواصل البحث حتى يلقاه مهما عانى من جهد .

وهناك مقطوعات يظهر فيها روح المودة والتقدير لأصدقائه من الأدباء والإشادة بأعمالهم ، إنه يهدى كتابه إلى صديقه المؤرخ « كورنيليوس » . ويشيد بقصيدة « زميرنا » Zmyrna التى كتبها صديقه « سنا » Cinna ويتنبأ لها بالخلود بينما يتنبأ بالنسيان لجوليات « ڤولوفيوس » Voluvius . وقد ذكرنا كيف أشاد بالمقدرة الشعرية لصديقه « كالڤوس » .

كان كاتوللوس ذا طبيعة حساسة قوية فى صداقته إذ كان يعتقد أن من يخطئ فى حق صديقه كأنه أخطأ فى حقه هو .

كما نشاهد فى أهاجيه « لپيسو » Piso و « پوركيوس » و « سوكراتيون »[1] وغيرهم .

ونلحظ تقديره للمحبة والصداقة فى هذه الكلمات التى يواسى بها صديقه « كالڤوس » عندما ماتت زوجته « كوينتيليا » Quintila (المقطوعة السادسة والتسعون) :

« فى يقينى أن حزن « كوينتيليا » لموتها المبكر لا يعدل سعادتها بحبك لها » لقد كان شديد الوطأة على قلبه فى سبيل أصدقائه فكان قلبه ينبض بالإخلاص لهم . ومن الأبيات التى ترجمها عن كاليماخوس (خصلة بيرونيكيس) والتى أرسلها إلى صديقه « هورتالوس » — حينما طلب هذا الصديق منه إرسال بعض قصائده الجديدة — نرى أنه كان لا يحتمل أن يوصف بأنه مقصر فى حقهم ، بالرغم من أنه كان حزينا لموت أخيه وأنه لم يجد نفسه قادراً على الكتابة بسبب تلك الصدمة (انظر المقطوعة الخامسة والستين) . وكتب مقطوعة جميلة وطويلة احتفالا بزواج صديقه « مانليوس » (المقطوعة الواحدة والستون) . كان كاتوللوس يشارك باحساسه أصدقاءه فى سعادتهم وهنائهم كما كان يشاركهم أيضاً أحزانهم وأتراحهم

وكان رهيف الحس . فياض الشعور ولم ينس أصدقاءه حزينا . كان أم سعيداً . وكان على درجة كبيرة من الولاء بالمعنى الرومانى لهذه الكلمة أى الولاء لأفراد الأسرة والوطن . إن مقطوعته (١٠١) التى يبكى فيها أخاه الذى توفى فى « ترواد » — وقد زار قبره وقدم له القرابين كما كانت العادة فى ذلك الوقت — تنم عن تأثره البالغ وحزنه العميق إذ يصف كيف كانت القرابين تبلل بدموعه . وكانت هذه الصدمة حجابا بينه وبين الحب والشعر ولو إلى حين .

وكان ذا طبيعة حنون حتى ازاء الجماد الذى لا ينطق . إن بعض الأماكن والأشياء الحبيبة إلى نفسه لاقت هوى عنده وغاصت فى أعماق قلبه كما نلحظ من قصيدتيه عن « سيرميو » وعن « زورقه » . كتب كاتوللوس قصيدته المشهورة عن شبه جزيرة « سيرميو » (المقطوعة الواحدة والثلاثون) عن عودته من « بيثينيا » حوالى سنة ٥٦ ق . م وهى تدعى الآن « سيرميونى » ويقال إن كاتوللوس كان يمتلك فيها منزلا ريفياً . ويبدى فيها كاتوللوس سروره البالغ لرؤيتها ثانية وكيف أنه كان يتوق إلى الوصول إليها حتى يركن إلى الراحة والأمان بعد العناء الذى لاقاه فى « بيثينيا » وكان يصفها بقوله "Venusta" أى « الوسيمة » ، تلك الصفة التى تطلق غالباً على الأشخاص فكأنه يخاطب صديقاً له . وكان يريد أن يمتزج بالطبيعة فتشاركه أفراحه وأحزانه . يخاطب « سيرميو » قائلا : « اغتبطى بعودة سيدك » . ويلقى

(١) ربما كان « بوركيوس » و « سوكراثيون » ضمن موظفى « بيسو » فى أسبانيا وقد ساعدها « بيسو » على الثراء بينما حرم صديقيه « فيرانيوس » و « فابوللوس » (انظر المقطوعتين ٢٨ و ٤٧)

عليها السلام باللاتينية كأنه يحيي صديقاً أو شخصاً[1].

ويتحدث فى المقطوعة الرابعة . بحنو ومباهاة عن زورقه الشراعى الذى صاحبه فى رحلته من بحر مرمرة إلى إيطاليا فيذكر تاريخ هذا الزورق وكيف أنه قطع من أشجار جبل « كيتوروس » Cytorus فى آسيا الصغرى ثم حمل إلى بحر « پونتوس » Pontus ثم عاد بسيده (كاتوللوس » خلال بحار عاتية سالماً إلى وطنه « سيرميو » ، وكيف أن ذلك القارب يرقد الآن على بحيرة « جاردا » Garda كشخص أدى رسالته فى الحياة ثم يقضى أيامه الأخيرة فى هدوء وهكذا نشعر أن هاتين المقطوعتين صادرتان عن قلب رقيق وروح صافية ومتفقة مع ميول الشاعر للأشياء الحبيبة إلى نفسه .

إنه كان يعتبر الصداقة عقيدة مقدسة . وكان يتأثر بدرجة كبيرة إذا أظهر أحد الأصدقاء إهمالا من جانبه. إنه كان فى الحقيقة حسن الظن بالأصدقاء وكان يتوقع أن يكونوا أكثر حيوية وإيجابية من الأشخاص العاديين فنراه يعيب على صديقه « كورنيفيكوس » (المقطوعة الثامنة والثلاثون) الذى لم يواسه ولو برسالة تخفف من آلامه التى تنتابه ويتساءل أهكذا يكون جزاء حبه لورينفيكوس ؟ ! ويلوم « الفينوس » (المقطوعة الثلاثون) الذى تركه فى محنة دون أن يساعده إذ يقول فى بداية قصيدته :

« يا ألفينوس ، أيها الخداع الناسى لأصدقائك . أيها القاسى ، لا أعتقد أن فى قلبك ذرة من رحمة لصديقك الحبيب . إنك الآن لا تتردد فى أن تخوننى وتخدعنى أيها الغادر . وإن الآلهة لا ترضى عن أعمال المخادعين المخزية . إنك لا تهتم بهذه الأشياء وتتركنى أنا التعس فى محنتى . يا للأسف ! أخبرنى ، ماذا يفعل الناس أو فيمن يثقون ؟ ! .

أما هو فكان يفى بوعوده مع الناس وكان فعالا للخير يقول الأستاذ « سلار » Sellar : « إنه لا يوجد كشاعرنا شاعر قديم ترك سجلا للعشرة الطيبة بين الأصدقاء أو قدم البرهان على احتفائه بالصلات الإنسانية واستعداده لتلبية ما تقتضيه هذه الصلات من مطالب ، لقد أظهر تقديره للآخرين وعبر عن مشاعره إزاء من قدموا له الجميل فى أوقاته المفعمة بالسعادة وبالحزن وفى أوقات دراسته الحادة ولهوه على حد سواء » .

وهناك من يعتقد أن مقطوعاته الهجائية هى سر براعته بما تحمل من نقد هادف . وإن ما يقرب من نصف مقطوعاته القصيرة وما يجاوز النصف من ابيجراماته تعد من بين أهاجيه ولا تشبه الأهاجى الأخلاقية التى كتبها الشاعران « لوكيليوس » و « هوراتيوس » بل تشبه أهاجى الشعراء اليونان أمثال « أرخيلوخوس » و « هيپوناكس » وغيرهما وذلك من حيث موضوعاتها التى تتسم بالطابع الشخصى . وهى إما لاذعة قاسية أو خفيفة مازحة . فهو يهاجم أعداءه ومنافسيه فى حبه كما نرى فى المقطوعتين (٧٧ و ٦٩) اللتين هاجم فيهما صديقه « روفوس » بعد أن سرق منه محبوبته « لسبيا » ولم يرع ما بينهما من صداقة ويصفه فى المقطوعة ٧٧ بأنه «سم حياته المرير» و « طاعون صداقته » وإنه قد استعبد شفاه محبوبته بقبلاته الدنسة . ويذكر فى المقطوعة التاسعة والستين كيف أن النساء تبتعدن عن «روفوس» للرائحة الكريهة التى تنبعث من إبطه ويشبهه بحيوان قذر . ولا يحتمل كاتوللوس تلك الوسائل الخسيسة التى يسلكها البعض

---

(١) salve

وبخاصة من أصدقائه فانها تثير حفيظته وينطلق حينئذ بشعره مستخدماً ألفـــاظاً نابية ولاذعة وما أسرع ما يتحول كاتوللوس من صديق إلى عدو عندما يعلم أن أولئك الذين قد وضع ثقته فيهم قد عاملوه بالغدر والخيانة والكذب . كان « فوريوس » و « أوريليوس صديقين لكاتوللوس ويظهر ذلك فى المقطوعة الحادية عشرة ولكنه يهاجمهما فى المقطوعات الباقية الموجهة إليهما فقد كانا مفلسين ويسألانه المساعدة بالمال ويظهران دائماً إخلاصهما له بينما هم من وراء ظهره يسبونه ومحبوبته ويحطان من شعره الغزلى فيصف «أوريليوس» بالفجور والشهوة وذلك فى مقطوعته الخامسة عشرة . ويصفهما فى مقطوعته السادسة عشرة بأنهما معتقان وسمعتهما سيئة . وهناك ملاحظة جديرة بالإشارة إليها ذلك أن كاتوللوس يدافع فى هذه المقطوعة عن شعره الغزلى الذى كان سبباً فى أن يصفه كل من «أوريليوس» و « فوريوس » بالخلاعة والرقاعة ويقول إنه ليس من المحتم أن يكون الشعر الخليع صادراً عن شاعر خليع بل قد يصدر عن شاعر على خلق قويم . وهذا يذكرنا بقول الشاعر «أوفيديوس» حيث يقول فى هذا المعنى : « صدقنى » إن أخلاقى ليست منبع أغنياتى . إن حياتى تتسم بالحياء والاستقامة بينما ربة الشعر طبعها اللهو والعبث ؛ وكذلك يذكرنا بقول الشاعر « مارتيالوس » الذى يقول : « إن قلمى عابث بينما حياتى طاهرة » . وقد استشهد « پلينيوس » Plinius بمقطوعة كاتوللوس هذه كذريعة للخلاعة التى هى طابع اشعاره .

وكاتوللوس فى ذلك يشبه بعض الكتاب المحدثين الذين كانوا إباحيين فى كتاباتهم بينما كانت حياتهم جادة نظيفة مثل « ريلى » Rayle و « لافونتين » La Fontaine و « سمولت » Smollet « كولى » Cowley وغيرهم .

ونراه يصف « أوريليوس » فى القصيدة (٢١) بأنه « سيد الجائعين » وأنه يغتنم كل فرصـــة للعبث واللهو وهتك الأعراض . وهكذا نرى إن خيانة الأصدقاء وعدم عرفانهم بالجميل يؤلمه كثيراً ويجعله يكفر أحياناً بالصداقة كما نشاهد من مقطوعته الثالثة والسبعين :

« فليمسك كل من يرغب من الناس أن ينال حسن الجزاء الذى يليق به من أى إنسان ، وكل من يعتقد أن من الناس من يمكن أن يكون وفيا . إن الكل ناكرون للجميل وإسداء المعروف عبث . أجل ، إن اسداء المعروف يرهق الإنسان وتكون عاقبته لا كما ينتظر أن تكون . فما أشبه ذلك بحالى التى أعانيها . أنا الذى لم يؤلمه أحد بأقسى وأعنف مما يؤلمنى به الآن ذلك الرجل الذى كنت له الصديق الوحيد » . إن صديقه لم يراع واجب الصداقة مما حدا به إلى أن ينظر هذه النظرة المتشائمة إلى طبيعة البشر . وهناك مقطوعات أقسى وأعنف من المقطوعات السابقة ، مثل المقطوعة التاسعة والعشرين حيث يهجو فيها « يوليوس قيصر » الذى ســـاعد « ماموراً » Mamurra رئيس فرقة المهندسين لجيش قيصر كى يثرى من أموال الأسلاب والغنائم التى استولى عليها الجيش الرومانى أثناء حروبه فى بلاد الغال وبريطانيا وأسبانيا ويصف فيها قيصر بأبشع الصفات مثل « الشرير » و « ناهب الأموال » و « المقامر » بل يتهمه أيضاً بالتخنث . وليس الدافع السياسى هو المحرك الأول فى هذه المقطوعة وإنما كان هدفه فيها مهاجمة « ماموراً » عميل قيصر إذ كان كاتوللوس يحقد عليه لأنه كان منافساً خطيراً له فى حبه فى ولاية بلاد الغال فإن ماحصل عليه « ماموراً » من أموال ساعدت على أن ينفق على ملذاته وشهواته

والقصيدة السابعة والخمسون شبيهة بهذه القصيدة حيث يتهم كاتوللوس فيهـا كلا من قيصر وماموورا بالفسق والفجور . وهناك مقطوعات أخرى لها علاقة أيضاً بأحداث حبه ، مثل المقطوعات الموجهة إلى «راڤيدوس» و «كوينتيوس» و « جيليوس » الذين حاولوا أن يسلبوه محبوبته فسلط عليهم قلمه ونعتهم بأبشع الصفات

وهناك مقطوعات ينقد فيها بعض رجال الدولة والأحوال السياسية فى عصره ، مثل المقطوعة الثامنة والعشرين حيث يهاجم فيها « بيسو » و « ميميوس » الأول عندما كان حاكماً فى أسبانيا والثانى فى بيثينيا وكيف أنهما نهبا هاتين الولايتين .

ولشاعرنا هجائيات أخرى من النوع الخفيف نسبيا ويسودها روح المرح والمزاح يتحدث فيها عن الأحوال الاجتماعية والأدبية فى روما . فيتحدث فى مقطوعة مازحة (المقطوعة السابعة عشرة) عن العجوز الغبى الذى يتزوج الفتاة الصغيرة الجميلة ولا يحوطها برعايته ورقابته بل يهملها غير مدرك للأخطار التى تواجهها مما يعرضهـا للذلل . ويهاجم فى مقطوعته التاسعة والخمسين « روڤا » تلك المرأة التى كان كل همها أن تأكل من طعام الجنائز . ويصف فى مقطوعته الثالثة والأربعين جمال المرأة الرومانية حين يوازن بين جمال عشيقة « ماموورا » وبين جمال عشيقته هو ، تلك التى يعتبرها رمزاً للجمال . ومن خلال وصفه لعشيقته ماموورا بأنها لاتملك السيقان الهيفاء والأنف الصغير والشعر الأسود نرى ما كان ينبغى أن تكون عليه صفات المرأة الجملية عند الرومان .

ويهاجم العاهرات فى شخصية معشوقته «أوفيلينا» (المقطوعتان ١١٠ و ١١١) أولئـك اللاتى لايفين بعهودهن ويحاولن أن يسلبن الرجال دون إعطائهم أى شئ . ويتهم « ثالّوس » فى قصيدته المازحـة الساخرة (الخامسة والعشرين) بالتخنث واللصوصية فقد سرق « فوط » مائدته .

ويسخر من بعض رجال الأدب ، كما يتضح من قصيدته السادسة والثلاثين حيث يهـاجم الشاعر « ڤولوسيوس » الذى أخذ يكتب « حوليات » تاريخية على طريقة الشاعر « إينيوس » فقد نذرت لسبيا أن تحرق جميع أعمال أسـوأ شاعر إذا عاد الوفاق بينهما وبين كاتوللوس فيترجم كاتوللوس هذا النذر حرفيا ويعد بأنه سيحرق أعمال « فولوسـيوس » مع أن لسبيا تقصده هو فقد وصف نفسه فى المقطوعة التاسعة والأربعين بأنه أسوأ شاعر .

إن مقطوعات كاتوللوس القصيرة تحتوى على كلمات وعبارات عامية خالية من الزخرف والكلمات الطنانة كما تحتوى على عبارات تتناسب مع النثر أكثر منها مع الشعر . أما فى المقطوعات الطويلة فإن أسلوب كاتوللوس يختلف عنـه فى المقطوعات القصـيرة إذ نلاحظ أن الكلمات المركبـة وضروب التكرار والتشبيهات والاستعارات والتراكيب اليونانية توجد بكثرة فى مقطوعاته الطويلة بينما يبتعد فى مقطوعاته القصيرة عن الخصائص التى نشاهدها فى شعر الإسكندرية بل نجدها تمتاز بالإيجاز واليسر والوضوح والتدفق ، كما أنها تقرب من اللغة المستخدمة فى المجتمع الرومانى وتجد فى مقطوعاته القصيرة — كما يذكر « إيلليس » Ellis اسطرا بأكملها هى أقرب إلى النثر منها إلى الشعر .

إننا نلحظ أسلوبين مختلفين فى شعر كاتوللوس ، رغم أنه عنى بأن يدخل على شعره التعبيرات البراقة والمصطلحات اليونانيـة ، وذلك بطريقـة ماهرة مع وجودة التصوير لعواطفه وتأملاته فى الحب حتى تبدو

أصيلة لم تتأثر بعنصر دخيل . ففى قصائده عن الحب والمجتمع يستخدم كاتوللوس الأحاديث المهذبة المتداولة فى المجتمع المرهف للجمهورية الرومانية ، وهذا شبيه بما فعله « تشوسر » فى قصائده التى كتبها بلغة بلاط « إدوارد الثالث » و « ليلى » Lily فى مسرحياته التى كتبها بأسلوب رجال البلاط والأدب فى عصر الملكة اليزابث . لكن الكلمات الشعرية المشتقة من شعر الإسكندرية ومن الملحمة اليونانية تظهر فى أسلوب قصائده الطويلة . ويقول « ماكميلان » إن الصفة التى يخلعها « هريك » على ربة الشعر عند كاتوللوس، وهى صفة الإيجاز ، لا تناسب أسلوب قصة « پيليوس وثيتيس » التى تشبه بحركتها البطيئة والمتأنقة أسلوب « سپنسر » Spenser القصصى المسهب . إن كاتوللوس قد استخدم أسلوبين يتناسب كل منهما مع موضوعه، على غرار « هوميروس » أو « پوپ » أو « بايرون » أو « وردزورث » . ويذكر « ماكميلان » إن لغة قصة كاتوللوس « پيليوس وثيتيس » تختلف عن القصائد الغنائية القصيرة عنده ، اختلاف لغة پوپ فى ترجمته للإليادة عن أسلوب رسائله الأخلاقية (moral epistles) واختلاف قصة Childe Harold عن كل من قصة بيپو Beppo و دون چوان Don Juan ، وكاختلاف أسلوب « وردزورث » لوداميا Laodamia عنه فى قصائده عن لوسى Lucy .

لقد كان كاتوللوس شاعر الحقيقة ، وهو شديد المودة لأقربائه وأصدقائه ، لكنه كان صريحاً فى احتقاره وعدائه لمن يشعر تجاههم بالكراهية . وهو ممن يعترفون بالجميل ويثبتون على الحب إذا كان المحبوب على استعداد أن يثبت على حبه أيضا . لذا نجد طابع المرارة فى لغته عند ماكشفت لسبيا عن عدم إخلاصها ، وعندما تنكر له نفر من أصدقائه . حقاً لم تكن له حكمة الفيلسوف التى تساعده على أن يقابل كلامن الحظ السعيد أو العاثر بهدوء ، أو يسير فى طريق الحياة برزانة وحكمة فهو لا يشبه « سكوت » Scott و « وردزورث » Wordsworth و « تنسيون » Tennyson بل يشبه كلا من « بيرنز » و « بايرون » و « جبى » Gay وهوذ وطبيعة سمحة نبيلة ، وهو صريح فى شعره ، تلك الصراحة التى تكشف لنا عن أخطائه . وإذا كانت عواطفه قد أركبته مركب الشطط فإنه الوحيد الذى عانى من هذه العواطف . ولم يكن أنانيا أو كاذبا ، كما قد يبدو من كتاباته ، ذلك أن الأنانية والكذب يجعلان حياة اللهو عند كثير من الناس ممجوجة كريهة . وإذا كانت صفة التأمل تنقصه إلى حد كبير ، وإذا أعوزه القصد النبيل . فى الحياة، فإنه لم ينظر إلى هذه الحياة نظرة الاستخفاف والطيش . وإذا بدا شىء من التأمل فى كتاباته فان ذلك العنصر لا يخلو من الوقار والجد ويمكن تفسير الخشونة التى نجدها بكثرة فى كتاباته بعادات عصره وقومه ، ومن المحتمل كل الاحتمال أن الاتهامات التى وجهها إلى أعدائه لم تكن لتؤخذ مأخذ الجد . ومع أنه لم يكن موفقا فى حبه ، فانه أظهر قدرة على الإخلاص الملتهب المشبوب ، وعلى انكار الذات . وهو قادر على أن يعنى بغيره أكثر من أن يعنى بنفسه أو بسعادته . وكان مثالا نادراً فى مودته وإخلاصه لأصدقائه . وإن حاجته إلى مشاركتهم إياه فى جميع مسراته وآلامه دعاء إلى النـــاس جميعا أن يسلكوا مسلك العطف والمودة .